

التربية والتعليم بين ما هو منشود والواقع الجزائري — اقتراب أنثربولوجي وتاريخي لمفهوم التربية —

أ.د. صلاح بوزو،

أستاذ مكتور بقسم علم الاجتماع،

كلية العلوم الاجتماعية، جامعة المسافيا، وهران.

مقدمة :

كثر النقاش والمقالات الصحفية والكتب، خلال العشريات الأخيرة، حول "أزمة التربية" وخاصة في الدول المتقدمة التي كانت بالأمس تنسب هذه الظاهرة إلى المجتمعات المتخلفة أي التي لها مؤسسات تعليمية غير متطورة، إلى درجة أن الالتباس أصبح قائما عند البعض، فصاروا كثيرا ما يخلطون بين التربية والتعليم ويذهبون إلى انتقادات لأذعة ضد المدرسة، متهمين إياها بالتقصير في التربية نظرا لما يشاهدونه من انحرافات خلقية ومن انحلال في التصرف ومن سلوك سيئ في المجتمع وكذلك فيما يتعلق بالجانب التعليمي فهم يلاحظون رداءته وانخفاض في المستوى الدراسي... الخ فهل المدرسة، في هذا العصر، مكلفة بمهمة تعليمية أم بمهمة تربية؟ وإذا كانت منوطة بالمهمتين معا، فما هي أدوارها بالضبط؟ وما هي مسؤولية ودور المجتمع والمقررين؟

1 المدرسة مكان للتعليم أم للتربية؟

قد طرحت هذه التساؤلات لدى بعض الباحثين في علوم التربية، عبر الدول الغربية وأمريكا أثناء الستينات، كإشكالية تربوية وبيداغوجية. فحاولوا، من خلال أبحاث ميدانية، التعرف على الأدوار التي تقوم بها المدرسة، ما هو الجانب التربوي الذي تعطيه، أي التزويد بمكتسبات فكرية (منها الخلقية)، وما هو الجانب التعليمي، أي توصيل زاد معارف (ثقافية)؟ علما أنه قد أسندت للمدرسة العصرية، منذ ظهورها في القرن السادس عشر، أدوارا مختلفة ومتعددة، حسب الثقافات والحضارات، والمراحل التاريخية التي مرت بها، بحيث استعملت كأداة لخدمة أغراض مختلفة سواء كانت دينية أو علمية أو سياسية أو حضارية، أو لتثيبت لسان ما كلغة وطنية، أو مؤخرا، عند بلدان العالم الثالث، كمؤسسة هامة لمحو الأمية وتثيبت الشعور الوطني، ولزراع إيديولوجية أو مذهب ديني مقصود، أو ضد التخلف ولرفع المستوى الثقافي للشعب.

أظهرت الكثير من نتائج هذه الأبحاث أن التربية لها أبعادها وخصائصها وهذه الأخيرة تختلف حسب الظروف والبيئات الإنسانية والأزمات .
لكن هل التربية كانت تشترط التعليم أم هي ليست متقيدة به؟ وما هي مسؤولية المدرسة في إعطاء تربية؟ وهل هي مؤهلة لإعطائها؟

2 الرجوع إلى أصول التربية :

لقد أصبح من الضروري تحديد مفهوم التربية والرجوع به إلى محتواه الأول عند المجتمعات القديمة، سواء منها الفطرية أو الأصلية، التي كانت لها تربية وأصالة وقيم وتوازن اجتماعي وخلق وثقافة، كما بينت ذلك الأبحاث الأنثروبولوجية والتاريخية ومن بينها أعمال الأنثروبولوجية الأمريكية - مرغرات ميد - التي عايشت، طيلة سنوات، قبائل بدائية بجزر "غينيا الجديدة" (المحيط الهندي، في الثلاثينات) ودرست تصرفاتهم وعاداتهم وتربيتهم وتنظيمهم الاجتماعي.

وكانت النتيجة أن الباحثة فوجئت بتربيتهم الأصلية، قبيلة "الأراباش" لها تربية متوازنة وهادئة مما يؤثر في أبنائها فيصبحون عند كبرهم ذوي الطبع اللطيف، والسلوكات الحميدة والمسالة... أما قبيلة "المنغمور" كانت تتميز بتربية عنيفة وقاسية مما يؤدي إلى خشونة أبنائها، الذين يعرفون، عند كبرهم، بشراستهم وتعسفهم مع المجتمع... لهذا ولتوضيح الفكر التربوي نرى من اللازم محاولة تحديد مفهوم التربية حسب تدرج أنثروبولوجي وتاريخي.

3. المعنى الأولي للتربية :

معناها الأصلي هو تلك المساعدة الشفهية و الحركية التي تقدم للفرد لكي يتأهب لخوض معركة الحياة ولكي يتخذ، بدوره، مواقف أمام شؤون الحياة مثلا الغذاء، الصيد، الدفاع عن النفس، الجنس... أو مواقف أمام الموت، وهذه المواقف تصبح تلمي سلوكات وتصرفات تعتبرها ثقافته مسائل ضرورية في هذه الدنيا.

4 اكتساب وتبليغ التربية

للتربية مدلول قديم، يرجع إلى بداية الإنسانية، فهي تعتبر في الأول ثقافة ضرورية، يجب أن يتحلى بها أي فرد ينتمي إلى المجموعة، فيصبح متمسكا بكل مكوناتها (نقول الآن بقيمها)، التي الضروري أن تلقن له منذ صغره من قبل أمه أولا (دور الأم في تلقين التربية المفيدة، موضوع هام وشاسع جدا) ثم من طرف عشيرته، ثانيا، وأخيرا ومن طرف أفراد المجتمع الذين لهم مسؤولية في الحفاظ عليها وفي نشرها.

5 الحكمة والتربية:

كان المجتمع البدائي يستعمل عدة طرق ليبلغ حكمته شفويا ثم عاداته أي كل ما من شأنه أن يكون لديه تربية أساسية، طالما كانت العلاقة و الاتصال شفهيين(أي قبل ظهور الكتابة) كان لا بد أن تؤخذ هذه التربية من كبار القوم لأنهم الأكثر تجربة و حكمة أثناء مناسبات تتم خلالها عملية تلقين وتأكيد المكتسبات التربوية، فكانت الحفلات والأعياد فرص عظيمة لتبليغ كل الزاد الثقافي والعادات والتقاليد، لأن الأطفال كانوا يحضرون هذه التجمعات ويشاركون بقوة في مختلف التظاهرات ويمارسون بكثرة مختلف الأنشطة، تحت رعاية الكبار

وبتحفيزهم لهم، وكانت تكرر هذه المناسبات وهذه الأعياد، والغرض منها توطيد الرابطة الاجتماعية والمبنية على الجانب الثقافي. لهذا، فهم يضعون الأطفال وسط اهتمامات الكبار، نظرا لضرورة تلقين العادات والتقاليد والمحافظة على دوامها عبر العقود وإستمراريتها من جيل إلى جيل.

6 التربية وصيانتها في المجتمعات العتيقة

عندما كان المجتمع مكون من طوائف و قبائل كانت التربية بمثابة المكون الرئيسي الذي يتضمن أخلاقهم و قيمهم وكان يحملها الكاهن و الشاعر و الحاكم :

الكاهن يسهر على احترام الطقوس ويضع لها مكانة وحدود لا يسمح بخرقها ولا بتجاهلها ("الطابو") فالفرد يصبح ملزما باحترام ما هو مسموح به واجتناب ما هو مرفوض (هذا قبل ظهور الديانات) من تصرفات وسلوكات.

والشاعر بفضل فصاحة كلامه يرفع من شأنها و يقوي لهجتها إلى أن تصبح لغة (لسان) وبفضل تفوقها على اللهجات المجاورة، فتهيمن عليهم لغويا قبل أن تغزوهم ثقافيا، والتربية السامية تعطى وتؤخذ بهذه اللغة.

و أما الحاكم يجتهد على توسيع نفوذها لكي تتغلب على القبائل المجاورة خاصة التي لها تربية ناقصة وضعيفة، وبهذا يبرر موقفه إزاء ضرورة غزوهم، لكي يستفيدون من نظام اجتماعي وتربية راقية.

7 التربية والثقافة :

مع مرور الزمن وكثرة التعبير اللغوي وتكاثر المعارف وتعدد المجتمعات أصبح من الضروري أن يكلف أناس مختصون لتبليغ هذه التربية لدى الأجيال نظرا لكثافة المكتسبات التربوية ولكثرة عدد أفراد القبيلة وخصوبة التعبير اللغوي فظهرت ضرورة ترسيخ التربية بوسائل شتى، تحتاج اللغة السمعية إلى ترديد وتكرار والإكثار من الحفلات لتقويتها ولإعادة فهم مدلولها، فظهر المسرح. فالقصاصد من شأنها توضيح وتوطيد التربية بإعطاء ثقافة واسعة بفضل استعمال الكلام في وضعيات مبنية، حتى يتم استيعاب التعبير اللغوي بصفة محسوسة من طرف أناس يقضون أوقاتهم في الحقل، فالمسرح بمثابة حصة اكتساب زاد لغوي وثقافي وتربوي (القصص، الملحمة، الحكم والروايات، وتمجيد الأجداد وذكر خصالهم، كل هذا يتم بعرض وضعيات مسرحية ذات أهداف تربوية... إلخ). بهذه الصفات، كان المسرح يكتسي أهمية تربوية واضحة.

8 التربية في البلدة

ثم بدأت التجمعات تظهر على شكل بلدة (Cité antique) الإطار الاجتماعي الأساسي لهذه البلدات، فهو يتكون من جماعات سكانية قليلة العدد فيتم الانسجام (التشئة) بين أفرادها عن

طريق الأشغال - أي الأعمال المشتركة -، التجارة - وفيها يتم التبادل -، الجيرة - العيش قرب الآخرين وما يتطلب ذلك من حذر في التصرف -، المصاهرة - إنشاء روابط اجتماعية جديدة والقرابة خارج القبيلة - وكذلك بدأت تبرز بعض المظاهر الاجتماعية مثل: التعارف، السمعة، المكانة وسط العشيرة، هي بمثابة معطيات أساسية تبنى عليها الكثير من القيم الخلقية والتصرفات التي أصبح يتسم بها المجتمع. في هذه البنية العمرانية الجديدة.

1.8. التربية الضرورية (القاعدية): تتم في النطاق الأسري فهي تتميز بحرص دقيق (بفضل اهتمام الأم وكبار العشيرة) على أن يتم تلقين الصغار كل ما من شأنه أن يمكنهم من اكتساب العادات والطقوس الخاصة بوسطهم، والموروثة عن بيئتهم الأصلية، المنحدرين منها والحرص على استمراريتها طبقا لما استقوه من أجدادهم. (التربية الأسرية)

2.8. التربية المدنية: في مرحلة ثانية كان يجب عليهم إعطاء مبادئ تنظيم الحياة في البلدة لكي لا يكون منحرفا عنها، فكانوا يحرسون على غرس قيم ومبادئ وروح الانتماء إلى هذه الجماعة في الطفل (تربية مدنية).

3.8. أما التربية الخاصة: (السياسية والعسكرية مثلا) كانت تعطي للقليل من الأطفال الذين سيحضون مستقبلا بمسؤوليات اجتماعية ويكونون خلفا للقائد أو الكاتب أو الكاهن أو المشرع.

4.8. عدم التربية: هناك صنف من الناس الذين يتخذون كعبيد فهم الذين يقومون بالأعمال الشاقة ولا حاجة لتربية أبنائهم.

فنوعا التربية (المدنية والخاصة) يقتصران على عدد قليل من الأطفال الأحرار

9. ظهور الكتابة وظهور المدرسة

بعد ظهور الكتابة حيث اكتسب المجتمع الإنساني وسيلة لترسيخ و تخليد عاداته بفضل نقشها على مادة معينة، حسب الزمان والمكان... فأصبحت الكتابة وسيلة جذرية لتبليغ الثقافة واجتباب إتلافها واندثارها مثل ما وقع للحضارات القديمة التي ليس لها خط (آنكا مثلا). في القرن السادس 6 قبل الميلاد حيث بدأت التربية تكتسب مكانة لدى اليونان بفضل التطور الحضاري (ظهور طبقات ثرية) وظهور العلماء والرقى الاقتصادي بفضل فتح قواعد تجارية بالبحر المتوسط وخاصة بسبب توفر السلم والاستقرار الذين كانا يسودان هذه الجهات فتطورت المعارف وظهرت العلوم المجردة مثل الفلسفة (حكمة، تفكير سامي) زيادة على تطور الخط، فالكتابة فقدت صبغتها اللغزية وبدأ التعليم (أي تعلم الكتابة والقراءة) ينتشر، فكان ظهور أول مدرسة سنة 491 قبل الميلاد، يذهب إليها الطفل لتعلم الكتابة وهو مرفوق بمربي .

1.9. العقل السليم في الجسم السليم:

أصبح التعليم ضرورة اجتماعية، بدأت التجمعات البشرية تتسع، وأصبحت الضرورة تقتضي من أهل البلدة القيام بأعمال مختلفة لخدمة المجتمع، خارج البيت وحتى خارج البلدة، بعيدا عن أطفالهم، فأصبح لزاما أن يكون أحد أفراد المجتمع منوطا بتبليغ الأطفال نصيبا من الزاد الحضاري (التنشئة بمختلف أوجهها) بما في ذلك تدريبات جدية في الرياضة وحمل السلاح ونشاطات أخرى...وتضاف إلى ذلك دروس في الموسيقى، أما قراءة الشعر وحفظه فكانت تحظى بمكانة عظيمة وتعتبر هي التربية الخلقية، ففيها تؤخذ العبر وتقليد السلف والأبطال في خصالهم وشجاعتهم وحكمتهم وسلامة تفكيرهم .

2.9. الحكماء المربون، التهذيب والمعرفة:

ثم ظهر في اليونان عهد حضاري راقي في القرن الثالث قبل الميلاد، برز فيه حكماء مربون (سقراط، أفلاطون) كانوا يبنون المعارف، وأنشئوا مراكز راقية في التفكير ومدارس فلسفية وبهذا أصبح التلاميذ يعيشون بجوار المربي الحكيم ويرافقونه ويقتبسون من خصاله وفضائله فظهر أن مهنة المربي اكتسبت جانبا خلقيا بحيث أصبح يشترط في المربي خصال من بينها النبل والفضيلة.

10 مهنة التكريس:

مع تكاثر و توافد التلاميذ على المدارس ظهرت ضرورة تكثيف التعليم ولهذا الغرض أصبح هناك فرد مختص بذلك وهو يتقاضى أجرا من طرف الأولياء. ثم بعد مرور قرون بدأت هذه المدرسة تتطور في شكلها ومضمونها حتى تغلب عليها الجانب المادي وصار الأغنياء من اليونانيون يعلمون أولادهم أحسن تعليم، وأصبحت ميزة التعليم والتهذيب تقتصر على الأغنياء (استعمال الآلة الموسيقية واكتساب الكتابة) هم الذين يتلقون تعليما وافرا وتربية مميزة.

11. مفهوم التعليم :

لم يصبح التعليم قائما كضرورة حضارية إلا بعد ظهور الديانات السماوية حيث أصبحت القراءة والكتابة ضرورية لقراءة ولحفظ النصوص المقدسة ونسخها للمحافظة عليها. كان للمدرسة، على مختلف أنماطها، دورا عظيما في تعليم الخط والقراءة في سياق تلقين مبادئ الدين ولغة، فأصبح لرجال الدين مكانة رئيسية في التعليم، مدة قرون طويلة وعبر مختلف الحضارات، إلى درجة أنهم احتكروا التربية بأكملها طيلة قرون سواء في أوروبا أو في الجهات الأخرى من العالم، فالمكان المخصص للتدريس كان دائما بقرب مكان العبادة، والمشرف على تعليم الأطفال هو، بطبيعة الحال، من أعضاء سلك الدين.

12. المهن الخفية:

تعلم القراءة والكتابة، بالإضافة إلى أدواره السالفة الذكر، كان يهدف إلى اكتساب مهارات متصلة بكل ما هو خطي، أي مكتوب أو مدون، هناك مهن قديمة وهامة كانت، منذ

الضراعة، تخول لصاحبها مكانة اجتماعية مرموقة، مثل مهنة الكاتب أو المدون، أو الموثق للعقود، أو آمن السر الذي يحرر الأوامر والقرارات للملك أو الفرعون... ومهنة الناسخ طيلة القرون الوسطى كانت له مكانة في تحرير المخطوطات، قبل أن تخترع آلة الطباعة التي قضت على مهنته.

الخاتمة

التربية تهذيب وتنشئة الجيل للقيام بأدواره. فتعليم القراءة، حسب التسلسل التاريخي، لم يكن دائما مقرونا بالتربية، لأن هذه الأخيرة كانت تلقن داخل الأسرة أو المجتمع أو الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد، وفيها يتلقى المبادئ الأساسية والضرورية لكي يتأهب بواسطتها للقيام بأدواره الاجتماعية والخلقية والسياسية، أما الروحية فكانت، بعد ظهور الأديان، من اختصاص رجال الدين الذين أدمجوها في تعليم القراءة والكتابة، حتى يتمكن الطفل من مطالعة النصوص المقدسة.

أما التربية الاجتماعية الشاملة فهي من مهمة الأسرة والعشيرة وكانت طيلة قرون من انشغالات الوالدين، فمثلا ابن التاجر أو ابن الضابط في الجيش أو ابن الخادم لا يتلقون نفس التربية لأن بيئتهم العائلية تختلف، والأدوار الاجتماعية التي يتأهبون لممارستها تخص مكانة والديهم وعشيرتهم، التي تؤثر على تصرفاتهم وتقوم على تنشئتهم الحقيقية وتعودهم، حسب ما تقتضيه الظروف، على التعامل مع كل الناس (ابن التاجر) أو على الأمر والقيادة (ابن الضابط) أو على الخضوع والطاعة (ابن الخادم)، مما يجعل تربيتهم تكتسي طابعا اجتماعيا وحضاريا محضا. وكذلك الشأن في تربية الفتاة، فمثلا بنات الأمراء والأسر الراقية تتعودن على السلطة والحكم والهيئة المميزة، كما ذكر مؤرخون رومان، في وسط الأسيرات كان يمكن التعرف على تلك الفتيات، من بين مئات النساء، بوقفتهن المتعالية ورأسهن المرفوع، بسبب تربيتها السامية ومكانتها.

نظرا لاستقرار الأوضاع في المجتمعات، طيلة سنوات، فالتربية عندهم ترمي إلى استمرارية الطبقات القائمة والمحافظة على مكتسباتها ومكانتها، فبهذا يربى الأطفال على النمط المنشود لدى وسطهم العائلي ثم الاجتماعي حتى يصبحون "خير خلف لخير سلف" كما تؤكد على ذلك الآثار المكتوبة التي تركوها لنا.